

الصدى الصوتي للحرف القرآني فواتح السور نموذجاً.

الأستاذ: هشام خالدي
جامعة المدينة

المقدمة:

يبدأ القرآن الكريم قد وجه اهتمام العرب منذ عهد مبكر ولفت نظرهم إلى ضرورة الإفادة من الزخم الصوتي في اللغة العربية وهو يستهل بعض السور القرآنية بجملة محددة من الحروف الهجائية التي تنطلق بأصواتها أسماء، لا بأدواتها حروفاً، للإفادة من صوتياتها لدى الاستعمال دون حرفيتها.

وكان القرآن العظيم قد افتتح عامة سوره بعشرة أنواع بيانية من فن القول شملت طائفة متميزة من معاني النحو وأساليب البلاغة حتى حصر أرباب علوم القرآن بذلك دون تزيد عليها أو نقصان منها، فلا يخرج شيء من فواتح السور عنها، وقد يتداخل بعضها ببعض تارة³⁸. ولعل من المفيد حقاً للإشارة على سبيل النموذج بأصل قرآني واحد لكل نوع تمهيداً بين يدي النوع المراد بحثه صوتياً، وسنكتفي بإيراد هذا النموذج الواحد للدلالة عليه في النماذج المتوافرة وجودها في أضراب أخرى لكل أصل.

- (1)- الاستفتاح بالثناء على الله تعالى كما في أول الفاتحة .
- (2)- الاستفتاح بالقسم، كما في أول سورة الفجر، (والفجر).
- (3)- الاستفتاح بالجملة الخبرية كما في أول سورة المؤمنون (قد أفلح المؤمنون).
- (4)- الاستفتاح بصيغة الأمر كما في أول سورة العلق (اقرأ باسم ربك).
- (5)- الاستفتاح بصيغة الشرط كما في أول سورة النصر (إذا جاء نصر).
- (6)- الاستفتاح بصيغة الاستفهام، كما في أول سورة النبأ (عم يتساءلون).
- (7)- الاستفتاح بالدعاء، كما في أول سورة المطففين (ويل للمطففين).
- (8)- الاستفتاح بالنداء كما في أول سورة المدثر (يا أيها المذكر).
- (9)- الاستفتاح بالتعليل، وقد ورد مرة واحدة في القرآن، في سورة قريش (لإيلاف قريش).
- (10)- الاستفتاح بحروف التهجي، وهي موضوع هذا البحث في الصوت الغوي، إذا تم استفتاح تسع وعشرين سورة في المصحف الشريف بحروف هجائية مقطعة تمكين حصرها بالضبط على النحو التالي:

أ- ثلاثة حروف موحدة هي: ص.ق.ن.

ب- عشرة حروف مثناة هي: طه، طس، يس، وحم استعملت في افتتاح سبع سور، فهذه عشرة.

ج- إثنا عشر مثلثة الحروف هي: ألم، ألر، طسم، وقد تكرر الأولان عدة مرات في المصحف دون طسم.

د- إثنا حروفهما أربعة: ألمر، ألمص.

هـ- إثنا حروفهما خمسة، كهيعص، حمعسق.

ولقد اهتم علماء الإعجاز القرآني بالتصنيف الصوتي لهذه الحروف في فواتح السور، وبيان أسرارها التركيبية، ودلائلها الصوتية، وكان أبو بكر الباقلائي (ت: 403 هـ) في طليعة هؤلاء الأعلام. فقال:

(إن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة، وجملة ما ذكر من هذه (الحروف) هي أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهي أربعة عشرة حرفاً ليبدل بالمذكور على غيره، والذي تنقسم إليه هذه الحروف أقساماً: فمن ذلك قسموها إلى حروف مهموسة وأخرى مجهورة، فالمهموسة منها عشرة، سكنت فحثة شخص وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة

³⁸ الزركشي: البرهان في علوم القرآن 1/ 146.

الحروف المذكورة في أوائل السور، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان³⁹.

وقد أفاض الزمخشري (ت: 538 هـ) في تعقب هذه الوجوه، وذكر هذه الملاحظة وأفاد مما أبداه الباقلائي وزاد عليه متوسعا، وفصل ما ذكره مجملا بما نحاول برمجته باختصار على النحو التالي:

أولا:

قال الزمخشري: (أعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدت أنها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء، وهي الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدت أنها مشتملة على أقصا في أجناس الحروف)⁴⁰.

ثانيا:

وبعد هذا التقسيم الدقيق تعقب الزمخشري حكمة هذا التركيب، وغاية هذا الذكر، وفلسفة هذه الأصوات، فقال: (ثم إذا استقرت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكور منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته. ولقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكأن الله عز وجل اسمه عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم)⁴¹. ووقف بدر الدين الزركشي (ت: 749 هـ) عند الصدى الصوتي للحروف المقطعة في فواتح هذه السورة من عدة وجوه صوتية، يمكن رصد أبعادها بالخطوط التالية:

أولا:

عرض الزركشي لأعداد هذه الأصوات في فواتح السور، ووقف عندما ابتدأ به بثلاث حروف، واعتبر لذلك سيرا صوتيا بارزا علله بقوله عن (الم) في تركيبها: (وذلك أن الألف إذا بدء بها أولا كانت همزة. وهي أول المخارج من أقصى الحلق واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتمادا على اللسان، والميم آخر الحروف، ومخرجها من الفم وهذه الثلاثة هي أصل مخارج الحروف أعني الحلق واللسان والشفنتين، وترتبت في التنزيل من البداية إلى الوسط، إلى النهاية، فهذه الحروف تعتمد المخارج الثلاثة، التي يتفرع منها ستة عشر مخرجا ليصير منها تسعة وعشرون حرفا، عليها مدار الحلق أجمعين، مع تضمنها سرا عجيبا، وهو أن الألف للبداية واللام للتوسط. والميم للنهاية، فاشتملت هذه الأحرف الثلاثة على البداية ثانيا: والنهاية والواسطة بينهما⁴².

وتعقب الزركشي ملائمة صوت الطاء للسين في (طس) ومجانسة للهاء في (طه). وهو يعمم هذه الملائمة وتلك المجانسة صوتيا فيقول:

(وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن، فإن الطاء جمعت بين الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها وهي: الجهر، الشدة، والاستعلاء، والإطباق، والاصمات، والسين، مهموس، رخو،

³⁹ الباقلائي: إعجاز القرآن، ص 66.

⁴⁰ الزمخشري: الكشاش 101/1.

⁴¹ نفسه، 103/1.

⁴² الزركشي، البرهان في العلوم القرآن، 168/1.

مستقل، صفيري، منفتح، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها، كالسين والهاء فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف⁴³.

وقد تنبه الزركشي أيضا إلى اشتغال سورة (ق) على ذات الحرف، لما في صوت القاف من القلقة والشدة من جهة ولاشتماله على الجهر والانفتاح من جهة أخرى (وتأمل السورة التي اجتمعت على الحروف المفردة: كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف، ممن ذلك (ق) والقرآن المجيد)⁴⁴.

فإن السورة مبنية على الكلمات القافية: من ذكر القرآن، ومن ذكر الخلق، وتكرار القول ومراجعتهم مرارا، والقرن من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد، وذكر الرقيب، وذكر السابق، والقرين، والإلقاء في جهنم والتقدم بالوعد وذكر المتقين، وذكر القلب والقرآن والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين، وتشفق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل، والرزق، وذكر القوم، وخوف الوعيد، وغير ذلك⁴⁵.

وعليه فإن حرف القاف في هذه السورة قد تكرر 54 مرة في خمس وأربعين آية زيادة على الحرف الاستفتاحي.

فما هذا السر الصوتي لهذا الحرف؟ وما علاقة تنمية السورة به من خلال هذا البناء عليه؟ وما هو موقع القلقة في القاف، والشدة في صوتها، والجهر بأدائها و الانفتاح عند نطقها بهذا التكرار في شتى الكلمات، مما ذكره الزركشي ومما يذكره.

وهكذا نجد الزركشي في تنبيهاته الصوتية، سواء أكان ناظرا لها، أم مجمعا لشتاتها، أم مبرمجا لخطتها، أم مبتدعا لبعضها- يؤكد العمق الصوتي لدى علماء العربية في إبراز حقيقة الصوت اللغوي فيما اتسمت به فواتح السور القرآنية ذات الحروف الهجائية المقطعة.

والحق أن استقرار المراد من هذه الحروف المعطلة وإن لم يدرك أسرارها - لا يخرجها عن حقيقة واقعها الصوتي في الأسماع، ولا جوهرها الإنصاتي لدى الإطلاق، فهي من جنس أصوات العرب في لغتهم، ومن حروف معجمهم، ومن روح أصداء لغة القرآن العظيم. ولا يمانع هذا الاستقرار على اختلاف وجهات النظر فيه من شموخ الصوت اللغوي في أضوائها، وبروز الملحظ الصوتي في تأويلها، توصل إلى الواقع أو لم يتوصل، على أن السلف الصالح مختلف في المراد من هذه الحروف المقطعة، وقد اختلف القدماء والمحدثون في سر هذه الحروف، فحاول فيما يلي أن نعطي كشفا منظما بأبرز هذه الآراء، ونعقبها بما نأس به، ونطمئن إلى مؤاه باعتباره جزءا من كلي فرائدها، دون القطع بأنه مراد الله منها أو القول به⁴⁶.

1- اختار ابن عباس: أن كل حرف منها مأخوذ من أسماء الله تعالى، ويقاربه ما روى عن السدي والشعبي أنها: اسم الله الأعظم⁴⁷.

و لا تعليق لنا على هذا الزعم من ناحيتين.

الأولى : أن أسماء الله تتداخل بظمنها جميع الحروف في المعجم العربي وقد تستقطبها فلا ميزة والمادة هذه لحرف على حرف.

الثانية : أننا نجهل اسم الله الأعظم لاختلاف الآثار والمرويات فيه، إن صح صدور تلك الآثار والمرويات.

⁴³ نفسه: 186/1

⁴⁴ سورة ق، 1.

⁴⁵ المرجع نفسه 169/1.

⁴⁶ للتوفيق بين هذه الآراء وتفصيلها كلا من الطبري، جامع البيان: 750/1. للطوسي التبيان: 47/1 .

⁴⁷ للكشاف: 83/1.

2- إن الله تعالى أقسم بهذه الحروف على وجهين : وجه اختاره ابن عباس وعكرمة: إن هذا القسم بأسمائه لأنها أسماءه.

ووجه: أن هذا الكتاب الذي يقرؤه الرسول (ص) هو الكتاب المنزل و لا شك ولا مرأ فيه، وذلك يدل على جلالة قدر هذه الحروف، وقد أقسم الله بـ (الفجر) والطور. فكذاك شأن هذه الحروف في القسم بها.

3- ورأي ثالث وهو أن العرب كانوا إذا سمعوا القرآن لغوا فيه، فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه، ويكون تعجبهم سببا لأسماعهم و استماعهم سببا لاستماع ما بعده، فترق القلوب وتلين الأفئدة⁴⁸.

وقد انتصر له من المحدثين الأستاذ محمد جمال الهاشمي وترجمه بمنظور عصري، وأضاف إليه البعد الرمزي فقال: "إن القرآن في أسلوبه البياني الفذ أراد أن يجذب الأنظار والأفكار، فافتتح بعض سورة المباركة، بهذه الحروف المقطعة فهي أشبه ما تكون بإشارات المحطات العالمية في الراديو حيث تتخذ كل دولة رمزا خاصا لها يدل على محطة إذاعتها، ويميز بينها وبين المحطات الأخرى وهكذا القرآن كان يتخذ من هذه الحروف رمزا مخصوصا لوحيه يستلقت به الأذهان لتستمع إلى آياته المنزلة بوعي و انتباه، ولازالت هذه الهزة الوجدانية تعتري النابهين من المؤمنين كلما طرقت أسماعهم هذه الحروف الساحرة في تقاطيعها المطربة، وإنما كان يستعمل هذه الإشارة الحروفية في الحالات الخاصة التي تستدعي الاهتمام.

إلا أن الملحظ الذي نقف عنده للدلالة على التنبيه على صوتية هذه الحروف مع كونها إشارات إعجازية في بعض حكمها الملحظ هذا: أنها تنطق كنطقك الأصوات ولا تلفظ كلفظك الحروف، فتقول في قوله تعالى: (ص) "صاد" صوتا نطقيا لا حرفا مرسوما "ص".

وكذلك في الحروف الثنائية مثل: (ألم)، (ألمر). وأشار الشيخ الطوسي (ت: 460هـ) إلى جزء من صوتية هذه الحروف فقال: "وأجمع النحويون على أن هذه الحروف مبنية على الوقف لا تعرب، كما بني العدد على الوقف ولأجل ذلك جاز أن يجمع بين ساكنين كما جاز ذلك في العدد.

الخاتمة:

هذه لمحات صوتية في خضم دلالات الحروف المقطعة في فواتح السور القرآنية، وقفنا عند الصوت اللغوي فيها، وأشرنا إلى البعد الإعجازي من خلالها، وليس ذلك كل شيء في أبعادها، فقد تبقى من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله، وخير الناس من قال فيها بكل تواضع، حيث قال مالك بن نبي في حديثه عنها: "لقد حاول معظم المفسرين أن يصلوا إلى موضوع الآيات المغلفة إلى تفاسير مختلفة مبهمة، أقل أو أكثر استلهاما للقيمة السحرية التي تخص بها الشعوب البدائية، الكواكب، والأرقام و الحروف، ولكن أكثر الناس تعقلا واعتدالا، هم أولئك الذين يقولون في حال كهذه بكل تواضع: الله أعلم". وفق هذا وذاك قول أمير المؤمنين الإمام علي -كرم الله وجهه- فيما ينسب إليه: "إن لكل كتاب صفوة، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي". وتبقى التأويلات سابعة في تيارات هذه الحروف المتلاطمة، والتفسير الحق لها عند الله تعالى، ولا يمنع من كشف سبل الحكم والإشارات و التوجيهات والملاحم اللغوية بعامه، أو الصوتية المتخصصة أو الإعجازية بخاصة في هذه الحروف، فهو ليس تفسيراً لها بملحظ أن التفسير هو الكشف عن مراد الله تعالى من قرآنه المجيد، بقدر ماهو إشعاع من لمحاتها، وقبس من أضوائها، يسري على هذه السالكين.

⁴⁸ الزركشي، البرهان في علوم القرآن، 175/1

الهوامش:

- الباقلائي أبو بكر، محمد بن الطيب، إعجاز القرآن، تحقيق سيد أحمد صقر، دار المعارف القاهرة، 1954 .
- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمد بن عمر، الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، دار المعرفة بيروت.
- ابن الزمكاني، كمال الدين عبد الواحد بن عبد الكريم، البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، تحقيق أحمد مطلوب، مطبعة العاني بغداد، 1964.
- الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، 1957.